يشهد العالم في عصرنا ازمة وثورة : ازمة تتزايد وتشتدّ ، وثورة تجتاح جميع الاصقاع . ويشهد نضالاً مستمراً بين البلدان المختلفة ، وضمن نطاق الدولة الواحدة ، بين مختلف الطبقات والاحزاب . « تطاحن لا يعرف هدنة ... فكأنّ العالم كلّه ينتادى من اقصاه الى اقصاه ليلاشي بيده ما وصلت اليه البشرية حتى الآن من تقدّم ورقي وحضارة »[1] اذ عمّت الفوضى جميع مظاهر الحياة البشرية في مختلف البلدان ، وهي على ازدياد امتداد واستحكام ، بقطع النظر عن الحرب التي جاءت خاتمة ما كنا نشهده . من ترى وسوس للبشر حتى هبوا جميعهم يفتشون عن ضالّة لهم ، فاتبعوا سبلاً متنوعة متناقضة ؟

اما نحن فانا معتقدون وواثقون بان لجميع هذه المشاكل حلّاً ، مهما بدت متناقضة ومتفرّقة . وان هذا الحلّ يرتكز على علاقات اسسها العدل والمحبة بين البشر . فيعمل الافراد ، ويعمل الحكام على احيائها . هذه الاسس وتوطيدها ، اولئك في قلوبهم ، وهؤلاء في قلوبهم ، وبفضل شرع يسنّونه .

---

١) المحامي يوحنا مارون : الفوضى الاجتماعية ، ص ٢ .

القضية الاجتماعية

الا ان الافكار تتجه نحو معضلة تشغل اذهنة الجميع وتستغرق اهتمامهم . الا وهي القضية الاجتماعية لا شك في انها تتناول جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، وتحدّد لكل من اعضاء المجتمع واجباته وحقوقه منعاً للمنازعات والخصومات . لكن هذه الكلمات « القضية الاجتماعية » قد اتخذت اتجاهاً جديداً فاقتصر في استعمالها على مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية الى حدّ انها اصبحت مرادفة لهذه الكلمات « قضية العمل » ونحن نعرّفها قائلين : انها تبحث في العلاقات بين اصحاب العمل والعمّال وتحدّد واجبات كل من الفريقين نحو الآخر ، باحثة في اجور العمال ، وساعات عملهم ، وما اشبه ذلك . وكلما وردت هذه الكلمات « القضية الاجتماعية » في بحثنا فهمناها وفقاً لهذا التعريف الاخير .

القضية الاجتماعية اليوم

عمل الانسان دائماً بيديه ، وشهدت الانسانية ، لالوف من السنين خلت ، مستخدمين ومستخدَمين . وشهدت ايضاً منازعات بينهما . الا ان الشرّ بلغ اشدّه من التفاقم والحدّة في منتصرم القرن الماضي ، ومستهلّ القرن الحاضر ، ولا يزال على ازدياد « اذ الخليقة باسرها تئن وتتمخض حتى الآن »[1] رازحةً تحت عبء ثقيل ، يكاد يؤدّي الى خراب وتدمير واسعي النطاق شاملين قد يعمّان العالم باجمعه .

يقول البابا بيوس الحادي عشر في رسالته « تحديد النظام الاجتماعي » واصفاً هذه الحالة ، ما يلي : « في اواخر القرن التاسع عشر ادّى التطوّر الاقتصادي وتقدّم الصناعات في اغلب الامم الى ظهور الهيئة الاجتماعية منقسمةً الى فئتين ازداد تباعدهما جلاء مع الايام : فمن جهة فئة قليلة من الناس يكادون يتشعون بجميع ما توفره لهم الاختراعات الحديثة من اسباب الراحة . ومن جهة اخرى

---

(١) رسالة القديس بولس الى الرومانيين .

فئة مؤلفة من جماهير العملة الذين ابهظتهم الفاقة وما تجرّه من الويلات وهم يحاولون عبثاً ان يفلتوا من ضيقاتها.

« وقد هان على الذين توافرت لديهم خيرات هذا العالم ان يرتاحوا الى هذه الحالة لانهم كانوا يرونها نتيجة ضرورية للنواميس الاقتصادية ولذا كانوا يريدون ان تلقى على عاتق الرحمة وحدها كل العناية بتخفيف وطأة ذلك البؤس كأنّ من واجب الرحمة ان تسدل ستراً على مخالفة العدل التي لم يكن الشارعون يغضون الطرف عنها فحسب بل كانوا ايضاً يقررونها مراراً. »[1]

لذلك لا يجوز اهمال هذه القضية ، لا بل يجني على المجتمع من يتناساها جناية لا تعرف عقباها . لان الشرّ قد بلغ مبلغه فاستفاق العمال كمن سبات عميق وشرعوا ينظمون صفوفهم ويؤلفون النقل ، ويرفعون اصواتهم عالياً مطالبين بحقوقهم . وويل للعالم اذا وجد العمال في مختلف البلدان من يوحد كلمتهم ويقرّبهم فيسير بهم على طريق الثورة والتدمير فيشفون بالدم ما في نفسهم من تعطّش الى العدل والمحبة . وقد خبرت بعض البلدان امثال هذه الثورات فعادت على من قام بها وعلى من وجهت اليه ويلاً وتدميراً وخراباً.

موضوع بحثنا

قلنا انه اقتُصر في استعمال هذه الكلمات « القضية الاجتماعية » على قضية العمل . الا انه بالرغم من ذلك لا يزال مجال البحث واسعاً يستغرق مقالات متعددة اذ يتناول اسباب الفوضى ، وهي كثيرة ، ويتدرج الى الحلّ المناسب لها . ويظن ان كثيرين بحثوا في هذا الموضوع وابدوا رأيهم فيه ، تعدّدت الآراء والنظريات . فمنها النظرية الاقتصادية الاباحيّة ، ومنها النظرية الاشتراكيّة ، واخيراً الحلّ المستمدّ من التعليم الكاثوليكي . وكل من هذه الآراء يتطلب ايحاثاً . ويزيد الموضوع اتساعاً ان الامة تتكيّف في كل بلد بميزات خاصة يجب مراعاتها اذا ما اردنا ان نجد حلّاً موافقاً .

---

١) البابا بيوس الحادي عشر : تجديد النظام الاجتماعي (الترجمة العربية) ، ص ٢

اما نحن فنعرض في هذا المقال الى الاسباب التي ولدت هذه الازمة خاتمين بالذكر التقدم الصناعي ، وما احدثه من ثورة في حياة العامل الفردية والعائلية وفي علاقاته مع صاحب العمل ، وننتهي الى ذكر الاسباب التي سهلت لها السبيل وساعدتها .

الا ان مقالنا لن يكون بحثاً ضافياً في « الآلة » فنعدد منافعها واضرارها مقارنين بين هذه وتلك ، واخيراً نشجبها او نبررها . لا : ان الآلة امر واقعي لا سبيل لانكاره ، ولا سبيل لاطراحها شئنا ام ابينا حبذناها ام قبحناها . الا انه يجوز لنا ان ندرس تأثيراتها في عالم العمل . ولا ندعي ان ما سنبينه في هذا الموضوع كان ولا شك واقعاً لو لم يوافق ازدهار الصناعة شيوع آراء فلسفية فاسدة ونظريات اقتصادية عقيمة حالت دون وضع حد لاخطار الآلة غير المنكورة .

فما الآلة الا درجة من درجات الرقي الانساني الذي هو في ازدياد مستمر . بل هي برهان ساطع على قدرة الانسان وحدة ذكائه الذي ابدع هذه الغرائب فتقف امامها مدهوشين مأخوذين . ولا مراء ان لكل تطور واسع النطاق تأثيره العميق في حياة الشعوب وقد يؤلف خطراً على توازن هذه الحياة ، اللهم ان لم يعمل الانسان على ملافاته ويحتاط للامر منعاً لاضراره . وقد نشبه هذا الانقلاب بنهر مياهه غزيرة صاخبة بوسعها ان تدمر كل ما يقف في طريقها ؛ وباستطاعتها ايضاً ، بفضل جهود الانسان ، ان تدرّ عليه خيرات فائقة . وهكذا الآلة فما هي الا اداة بين يدي الانسان يستخدمها فتخدمه ، او يستعبد لها فتسوده . اما في الواقع فان الآلة اثرت تأثيرا عميقاً في المجتمع ذهب ضحيته العامل ان في حياته الفردية ، وان في حياته العائلية . لان الانسان لم يعرف ان يستخدم الآلة ولان السلطة لم تع لتضع حداً لشرور تلمسها لمس اليد .

الآلة في حقل العمل

« الانسان شحيح بتعبه كلف بتقليل عمله »[1] لذلك نراه « بفطر طبعه كلفاً

---

١) الموجز في علم الاقتصاد – تعريب حافظ ابرهيم وخليل مطران ١ : ٤٠٤

بصنع الآلات وعلى قدر تنوه وارتقائه تتعدد هذه وتتنوع وتتغرب اجهزتها.»[1] فبينما هو يحدث في بادئ امره «القوس والسهم وشبكة الصيد»[2] لا يلبث ان يسخر «الطبيعة وجنودها من حيوان وماء وريح وبخار وغاز وكهرباء وهواء مضغوط»[3] استزادة لقوته وضناً بتعبه وقد بلغ في هذا المضمار شوطاً بعيداً منذ منتصرم القرن الماضي بفضل الاستنباطات المتعددة وما يسرت من تطبيقات عملية. سخر الانسان البخار والكهرباء فتوصل بواسطتها الى تسيير آلات جبارة ومتنوعة. شمل استعمالها معظم حقول الانتاج فاصبحت واسطة لاستخراج المواد الاولية، وواسطة لتحويرها، وواسطة النقل على مختلف مظاهره. وهكذا سيطرت الآلة فخلقت احتكاراً واقعياً، اذ لم يتردد الرأسماليون في استعمالها بدون أيّة روّية او تحفظ.

تأثير الآلة في حياة العامل الفرديّ

لا مشاحة ان ممكنات الآلة تفوق بدرجات ممكنات العامل اليدوي. فهي تمتاز عنه بسرعة في العمل، مع استخدام يد عاملة قليلة جداً. وقد يكفي ذكر بعض الامثال لتتحقق صحة هذا القول: لنتصور عاملة في لف السكاير. فهي تتوصل بشغلها اليدوي مع الكد والاجتهاد الى تهيئة ٦٠٠٠ سيكارة في ثماني ساعات شغل، بيد ان الآلة تعطي النتيجة نفسها في دقيقتين ونصف الدقيقة فبوسعها اذن ان تهيئ مدة ثماني ساعات عمل ما يتوصل اليه ١٩٢ عاملاً في المدة ذاتها. لذلك اذا استعملنا الآلة اكتفينا بتشغيل عامل او عاملين بدلاً من ان نشغل ١٩٢ عاملاً.

مثل آخر: ليس من يجهل شركة باتا وهي في بلادنا فرع من شركة منبثة في كل البلدان. فهي تستطيع ان تكفي العالم ما يستهلكه من الاحذية. وقيسوا على ذلك جميع فروع العمل ان في الحقل الاقتصادي، وان في الحقل

---

(١) الموجز ١: ٢١٣

(٢) الموجز ١: ١٤٤

(٣) الموجز ١: ١٤٥

الزراعي . فينتج عن ذلك البطالة وهي شر عرفته جميع البلدان فبلغ مجموع العاطلين عن العمل سنة ١٩٣٠ (وهـذا الرقم على ازدياد لا على انتقاص) ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ عامل واذا قلنا ان اعالة شخصين او ثلاثة ملقاة على عاتق كل من العاطلين عن العمل فهمنا ان عدد المهددين بالجوع لا يقل عن المئة مليون.

وشر البطالة هذه ليس بحرمان ثلاثين مليوناً من عملهم فحسب ، بل يؤثر على من لم يصرفوا من الخدمـة ان في اجورهم وان في موقفهم ازاء صاحب العمل . لا شك في ذلك لانه يحل آنئذ في العمال ما يحل بكل ما هو خاضع لشريعة العرض والطلب . فكما ان اسعار الحاجيات تتصاعد او تتضاءل بالنسبة الى ندرتها وكثرة الطلب لها . هكذا تمل في اجور العمال . فانها تتصاعد اذا ما ندرت اليد العاملة وتتضاءل اذا ما سهل وجودها ، فكم بالاولى اذا ما كان ما ينيف عن الثلاثين مليوناً من العمال ينتظرون بفروغ صبر ان يجدوا شغلاً . ولا عجب ايضاً والحالة هذه اذا ما اصبح العامل الذي لم يصرف من الخدمة سريع العطب في موقفه ازاء من يستخدمه . لان هذا لا يتردد في صرفه من العمل إذا راق له ذلك ، على يقين من نفسه انه يجد من يخلفه في عمله.

تأثير الآلة في نفسية العامل

لا يقتصر ادخال الآلة في الحقل الصناعي على خلق فئة جديدة ، فئـة العاطلين عن العمل . انما كونت محيطاً جديداً لحياة العامل في عمله اثّر في نفسيته من افكار وعواطف ، دون ان يبدي العامل اية مقاومة ، لانه لم يكن لديه العدة الكافية لمجابهتها . وذلك أنّ تربيته ، وتهذيبه ، وتثقيفه ، لم تخوّله ان ينظر الى الانقلاب الذي شمل حياته نظرة حكمة وسداد رأي ، فرزح تحت عبء الآلة وضعفت معنوياته . كيف لا وقد اصبحنا نفتش عبثاً على الاقل في المدن الكبرى الصناعية عن الصناعة اليدوية وعن تلك الحوانيت الصغيرة الهادئة التي تضمّ تحت سقفها اشخاصاً معدودين يعملون معـاً ، يتحادثون ويتآنسون . هذا كله قد زال واستبدل . . . استبدل بتلك الحوانيت الهادئة المطمئنة معامل ومصانع كبيرة شاسعة جبارة ، بنايات واسعة الارجاء يتيه فيها من لم يألفها ،

فهي اشبه بمدينة منها ببناية . وهي تغصّ بالعمال ليلًا ونهارًا ، وتموج عجيجًا كأنها البحر المتلاطم بما فيها من الآلات والادوات . الوف بالوف من العمال دخلوا تلك المعامل فوقفوا حياتهم في خدمة الآلة ينظمون حركاتهم وسكناتهم وفقًا لحركاتها وسكناتها وهي لا تقف ولا تسكن . فيرى العامل نفسه كأنه جزء منها يحرك يده ويحرك رجله ويحرك جسمه كلما تحركت ، الآلة وان تعب فلا سبيل الى الراحة . فهو مسيَّر لا مخيَّر .

تأثير الآلة في حياة العامل العائلية

فيثقل على العامل عمله ويزيد في ثقله مما يضطره الامر في غالب الاحيان الى ان يرى امرأته واولاده يغادرون البيت صباحًا ليعودوا في المساء وقد انهكهم التعب . ولا سبيل الى الانكار ان الآلة سهّلت سبل العمل فجعلته قريب المنال من المرأة والولد « وقد تغني في بعض الاعمال بالمرأة والطفل عن عشرات من الرجال الاشداء ، الذين ينهكون قواهم دونها »[1] . نشهد هذا الامر في بلادنا . نعم ان مقالنا ينظر الى القضية الاجتماعية نظرة اجمالية تتكيف حسب البلدان ، الّا انه ينبغي لنا ان نأخذ بعض الامثال عما نشهده في هذه البلاد . اين هي تلك الانوال البيتية التي قلما كان يخلو بيت منها ، تديرها المرأة وتعاونها في عملها ابنتها حتى اذا ما كبرت كان بوسعها ان تنسج على النول الذي تجده في بيت زوجها . الّا ان هذا كله قد لا نرى له اثرًا لان البضاعة الاجنبية والمنتوج الصناعية قضت عليه لذلك اضطرت المرأة وابنتها الى مغادرة بيتها والاحتشاد في معامل النسيج . وهل من ريب في ان ذلك التفرق والتشتت في العائلة يضعف الحياة العائلية وينهكها ؟ يعود الرجل من عمله مثقلًا بشغل نهاره ، وهو يودّ ان يرى امرأته تخفّ لاستقباله لتخفف عنه وطأة التعب ، وقد هيأت له كل ما يحتاج اليه ليستعيد قواه فيعاود عمله بنشاط واندفاع . ولكن ظنه قد يخطئ اكثر من مرة ، فلا يجد بيته وفقًا لرغبته . ولا يندر ان تعود ربة البيت

---

١) الموجز ١٥٢ : ١

من العمل بعد عودة زوجها. وربما اشتغل الرجل نهارًا وامرأته ليلًا او بعكس ذلك . فتحدث حالة كهذه صدى بعيدًا في حياة العامل وعواطفه وحبه ، ولا عجب اذا لجأ الى المقاهي والخمارات . . .

ولا لوم على المرأة ، لانها عاجزة عن ان تقوم بسياسة بيتها وتربية اولادها ، ولا على الرجل لان ما يتقاضاه غير كاف لاعالته مع اهل بيته . على ان هذا لا يمنع ان يكون للامر اهمية كبرى اذ الحياة العائلية مهددة بالدمار والانطفاء في ملايين من المنازل. ناهيك عن الحيف الذي يلحق بالفتى والفتاة ولم يتجاوزا بعد الرابعة عشرة من عمرهما عندما ينزعهما المعمل من بين يدي امهاتهما ليلقي بهما في محيط مجهول اقل ما يقال فيه انه مشبوه امره .

تأثير الآلة في الانتاج

واخيرا لا يخفى — وهذه ميزة الآلة الثالثة — ان امكانيات الآلة في الانتاج غير امكانيات العامل بدونها . فتلك تفوق هذه بدرجات اذ باستطاعة الآلة ان تخرج ما تنتجه « بلا حدّ في العدد على مثال واحد وبهذا تبلغ الآلات غاية القوة »[1] . وبما ان المعامل التي تستخدم فيها الآلات لا تحدد انتاجها على الطلب الذي عليها اي انها لا تقتصر على صنع ما يكون قد طلب منها بل تتجاوزه كثيرًا وتعرض ما فاض عليها في الساحات التجارية ، تكيفت الازمة التي يشهدها العالم بميزة خاصة غريبة الشكل ، وهي ان الطبيعة بفضل جهود الصناعة فاضت على الانسان بخيرات وافرة ، اذ تعددت المصانع وكل منها يحاول ان يزيد انتاجه ، بصرف النظر عن مقدرة الشاري الاستهلاكية . وهل يا ترى زادت مقدرة العامل الاستهلاكية ؟ لا . لذلك ليس بوسعه ان يستفيد من هذه الخيرات الفائضة لان مقدوراته الشرائية ضئيلة . ولا عجب اذا نظر بعين الغضب الى صنع يديه لانه محروم منه . ذلك ان المزاحمة بين العامل وعدم تحديد الانتاج يمنعان ارباب العمل عن زيادة اجور عمالهم . ونكاد لا نصدق — الا انه امر واقعي —

---

١) الوجز ، ١٥٢ :

ان سنة ١٩٣٤ انتجت محصولات كثيرة نذكر منها :

٨،٨٦٠،٠٠٠ قاطرة من القمح، ١١٤،٠٠٠ قاطرة من الرز، ٣٢،٠٠٠ كيس من البن، ١٣،٠٠٠،٠٠٠ طن من السكر، ٦،٠٠٠،٠٠٠ خنزير، ٨٠٠،٠٠٠ بقرة.

وقد شهدنا في بلادنا لسنين خلت اقتلاع اشجار الموز.

مع ان ما يزيد عن المئة مليون من العمال لا يأكلون شبعهم.

مساكن العمال

واخيراً اذا جاز لنا ان ندخل مساكن العمال، فاكثر ما نراها بحالة غير مرضية ولماذا ؟

نعم ان الآلة تقتصر على استعمال يد عاملة قليلة ولكن هذا لا يمنع ان تضم المعامل الكبيرة مئات والوفاً من العمال. لان الآلات تتعدد فيها ولان تلك المعامل واسعة الارجاء فسيحة. واذا تعددت المعامل في المدينة الواحدة ومعظمها يبنى في ضواحيها، فلا نعجب اذا عرفنا ان سكان بعض المدن الصناعية تضاعف عددهم بوقت قليل. لان من توافر لديه المال يمكنه بوقت زهيد ان يشيد البنايات ويستجلب الآلات اللازمة الصناعة التي يريد ان ينشئها. ويمكنه ايضاً ان يجد بسهولة العملة الذين يحتاج اليهم. فيتوافد هؤلاء، اما من احياء المدينة، واما من الجبل، فيجدون كل شيء جاهزاً للعمل. الا انهم قلما يجدون بيتاً جاهزاً لسكناهم، فيحدث واحد من امرين : اما ان يجدوا بنايات للاجار فيستأجرونها لقاء ثمن مرتفع لتكاثر الطلبات لها فيكتفي العامل بغرفة واحدة يلجأ اليها مع امرأته واولاده مهما كان عددهم. تارة تكون غرفة نوم وتارة غرفة اكل واخرى ردهة استقبال واما — وهو الامر الثاني — ان لا يجدوا البنايات المناسبة فيتم بسرعة وافرة بناء بيوت قد تصلح لكل شيء الا للسكن فيتكدس فيها العمال وهي اشبه باكواخ منها ببيوت — ضيق في النفس وضيق في المسكن مما يجعل العامل يشمئز من حالته ويفقده كل لذة في الحياة. ولا غرو اذا تكاثرت الامراض والعلات في تلك المناطق التي يحتشد فيها الناس، لانهم محرومون من مناخ جيد واكل مغذٍ.

الآلة وطرق المواصلات

وقد زاد الشر تفاقماً الانقلاب الذي احدثته الآلة في طرق المواصلات. وهذا امر بيّن لا يحتاج الى طول شرح ، فنكتفي بالمقابلة بين القوافل والقطارات او سيارات الشحن لنقل البضائع. وماذا نقول في السفن التجارية التي تؤمن المواصلات بين البلدان المختلفة ، وهي في اتقان مستمر تتزايد حمولتها يوماً عن يوم. وماذا نقول في الطائرات وفي تنوعها وضخامتها وسرعتها ؟ حتى اصبحت البلدان مهما نأت وتناهت في البعد باتصال بعضها ببعض تتبادل محصولاتها بسهولة كلية. وقد نتج عن ذلك امران نلفت اليهما الانظار :

ارتباط الساحات التجارية

قد لمحنا فيما سبق الى ان الصناعة لا تكتفي بتجهيز طلبات معينة فحسب ، بل تنتج اشياء كثيرة بصرف النظر عن طلب معين. ولا شك ان تلك البضائع تعرض للبيع في الساحات التجارية ان في شتى المناطق من البلد الواحد وان في مختلف البلدان ، وذلك بوقت سريع واكلاف زهيدة بفضل ما يسرت الآلة من طرق المواصلات في العالم. فحصل ان الساحات التجارية اصبحت متأثرة ومتماسكة ومرتبطة بعضها ببعض ، حتى اذا تأخر او نشط انتاج احدى الصادرات في بلد ما شعرت بذلك التأخير والنشاط الساحات التجارية التي تعرض فيها تلك السلع تتراوح اسعارها بين هبوط وصعود حسب توافرها وانتقاصها ، فيتضعضع الشاري والبائع ، فيمتنع هذا عن البيع وذاك عن الشراء ، او يستقل بالتجارة بعض المتمولين فيخلقون احتكاراً واقعياً ويحتفظون بتسعير البضاعة وفقاً لرغائبهم مشروعة كانت ام لا ولا ريب ان مثل هذا الاحتكار الواقعي له سهمه الاوفر في الازمة الحالية. وهل من حاجة الى القول ان ما نقاسيه في هذه الايام يعود الذنب فيه الى مثل هؤلاء المحتكرين ؟

المزاحمات التجارية

لكن الشرّ لا يقف عند هذا الحدّ اذ ينتج عن سهولة المواصلات امر آخر يؤثر في العامل بنوع خاص نعني به المزاحمات التجارية . لا منازعة ان المرافق

الطبيعية متفاوتة بين البلدان منها ما هو غني التربة ظاهرها وباطنها ومنها ما هو فقيرها . وهكذا قل عن التقدّم الصناعي فقد بلغ درجة من الرقي في بعض البلدان لم يصل اليها في غيرها . اضف الى ذلك ان اجور العمال ليست هي نفسها في كل صقع . فقد يتقاضى العامل الفرنسي مثلاً اضعاف ما يتقاضاه العامل الياباني . لا بل نشهد هذا التفاوت في الاجور ضمن نطاق البلد الواحد ، ولنا في بلادنا شاهد على ذلك اذ ما يتقاضاه العامل « المتوالي » اقل بكثير مما يطلبه غيره من العمال .

فهذه العوامل الثلاثة كافية لتفهم ان اكلاف البضائع متأثرة بغنى البلد الطبيعي ، وتقدمه الصناعي ، واجور اليد العاملة فيه . واذا توافرت هذه العوامل الثلاثة في البلد الواحد سيطرت بضاعته في جميع الاصقاع وهدّدت الصناعة الوطنية بالبوار . وما البضاعة اليابانية الا اكبر شاهد على هذه الحالة ، اذ نراها منتشرة ومعروضة في جميع الساحات التجارية . ولهذه المزاحمة اليد الطولى في قتل حرير القزّ في بلادنا . وادّت هذه المزاحمة ايضاً لبضع سنين خلت الى قتل معمل سكر بالقرب من طرابلس . لان السكر الذي يردنا من مصر كان اقل ثمناً واكلافاً من السكر الذي كنا نستخرجه في بلادنا . وحكاية النسيج الوطني شبيهة بقصة معمل السكر . فان حرير القز الذي تنسجه الانوال البيتية يكلف اكثر من الحرير الذي تنسجه المناسج الصناعية في البلدان التي نشطت فيها الصناعة وازدهرت .

لكن ما العمل لوضع حدّ لهذا الخطر ، اذ ما من بلد يرضى بان تموت صناعته ؟

للامر حلّان ممكنان او بالاحرى معروفان ، يعمل بهما : اما ان نقفل ابوابنا باية طريقة كانت امام هذه البضاعة الاجنبية فنعرض انفسنا للمعاملة نفسها ، فتقفل تلك البلاد ابوابها بوجه بضاعتنا . واما ان نحاول مزاحمة تلك البضاعة ، وذلك بانتاج بضاعة قليلة الاكلاف . واذا كانت الطبيعة لم تمنّ علينا بتربة غنية ، او لم تبلغ الصناعة مبلغها من الرقي كان لا بدّ لاصحاب المعامل والمبارك من تخفيض اجور عمالهم الى حدّ غير معقول . فيذهب العامل ضحية هذه المزاحمة

اذ يجد نفسه يتقاضى اجوراً دنيّة لا تكفيه واهل بيته . فقر وشقاء ينزلان بالعامل فيحسب نفسه ، وهو لعلى صواب ، ضحيّة الجور والظلم . ولا عجب اذا فتش عن اية طريقة ممكنة للافلات من حالة غير مرضية . وليس هذا الحل ، اي تقليل اجور العامل ، مما يبهج ارباب التجارة ، لان مقدرة العامل الشرائية تضعف بتضاءل اجوره فتفيض الخيرات ويكثر الجوع والشقاء .

تأثير الآلة في العلاقات بين العامل وصاحب العمل

شعر العامل بضيق في اجوره ، وضيق في مسكنه ، وضيق في نفسه ، وجال بنظره الى ما حواليه فرأى نفسه بمزلة يتخبّط في مصاعب شتى ، وما من يمدّ له يد المساعدة . فخامره الشك فيمن يتعاون واياهم على العمل لان الشعب بحاجة الى مدبر يضع فيه ثقته ويفضي اليه بهمومه ، وهو لم يكن على استعداد لمجابهة ظروف معيشة لم يألفها . فتضعضع وفتش عمن يكل اليه امره . ولما لم يجد صاحب العمل استسلم بين يدي من وعده بالاهتمام بشؤونه دون ان يتفحص امره .

علاقات العامل وصاحب العمل في الحوانيت الصغيرة

قلنا ان الصناعة اليدوية استبدلت بها الصناعة الميكانيكية وذلك بفضل الآلة . اين هي ، اللهمّ في المدن الكبرى ، تلك المصانع الصغيرة يجتمع فيها عدد صغير من العمال يشتغلون على مرأى ومسمع بعضهم من البعض ، يشملهم نظر صاحب العمل الابوي ويكتنفهم بعطف وحنان هم بحاجة اليهما ، لا سيما اذا ما كانوا بعد في اول عمرهم . فانهم لم يُنتزعوا من بين يدي اهلهم ليُطرحوا في محيط مجهول . انما غادروا عائلتهم لينضموا الى عائلة اخرى لا تقلّ عطفاً ومحبة عن الاولى . فهم يتآنسون ويتحادثون ، ويلتفون حول مائدة واحدة يؤنسها صاحب العمل ، الذي لا يشمئزّ من الاختلاط بهم ، ولا يحطّ من قدره عمله هذا انما يشرفه ويوطد في قلوب عماله نحوه عواطف المحبة والاحترام لانه يحب عماله ويحترمهم ويعرف ان عمل كليهما ليس الا واسطة تؤمن لهما الحياة . هم يقفون عملهم في خدمته وهو يأخذ على نفسه ان يزيلهم مع عائلتهم . كما ان الاب الذي يعطي الحياة لولد لا يتقاعد عن حفظ تلك الحياة وانمائها ، كذلك هو قد تبنى

عماله وقطع معهم عهداً ان يعطيهم ازاء شغلهم ما يكفيهم وعيالهم . ولا عجب اذا وجدت هذه الروح التي تهيمن على المصنع اتحاد القلوب والتعاضد الحقيقي ، فلا تدع مجالاً للمنازعات بين الفريقين لان علاقات ودية صادقة تربطهما وتضمن لهما هناء العيش وصفاء النية . فيكبر العمل في عيني من يأتي به لانه يفهمه كما هو . فيكون هذا الجو العائلي الذي يشمل تلك الحوانيت من اكبر العوامل على رفع شأن العامل . ونقول ان ضائقة المال ليست بضائقة مال فحسب ، بل هي ضيق في النفس وعزلة وانفراد . وقد تحدد ساعات العامل وتقللها على امل ان نضع حداً لشقاء العامل . وقد ترفع مستوى الاجور متوخين الغاية نفسها ولكن اصلاحاتنا هذه وان ضرورية لا تفي بالمطلوب وحدها ، لانها تهمل وجهة هامة في القضية وهي نفسية العامل . فقد اصبح هذا بحاجة الى ثقافة وتدريب خاصين يناسبان الظروف الحاضرة ويحببان العمل الى العامل .

علاقات العامل وصاحب العمل في المعامل الكبيرة

هذا ما كنا عليه ، وهذا ما صرنا اليه : الفة وتعاضد . ابتعاد ومنازعة .

قلنا ان تلك المعامل الصغيرة تبدلت الى معامل كبيرة تضم الوفاً من العمال يدير شؤونها اناس يجهلون العامل ، وهذا يجهلهم ، فيحدث واحد من شيئين :

اولها ان تلك الصناعة تخص مساهمين كثيرين او اعضاء شركات مغفلة يكلون ادارتها الى مهندسين يسهرون على سير الاعمال ، ويؤمنون لهم الارباح ، فيتقاضون لقاء عملهم اجرة معينة تربو اذا ما ازدادت المكاسب . فيصبح همّ المهندسين الاوحد ان ينشطوا الصناعة بقدر طاقتهم زيادة لارباحهم . ويصبح هم الشركات والمساهمين ان يروا في ايديهم كثيراً من المال . فينسى هؤلاء وينسى اولائك ان تلك المكاسب انما القسم الاوفر منها ثمرة اتعاب اناس وقفوا حياتهم على خدمتهم ، لهم عيالهم ، ولهم متاعبهم وهمومهم ، فلا يجوز التغاضي عنها . لكن التبعات قد ضاعت . اما المساهمون فلانهم يجهلون كل شيء او يتجاهلون فيغسلون ايديهم قائلين : ما لنا وللعامل ، اننا لا نعرفه هو يجهلنا فليحلّ مشاكله اذا كان ثم مشاكل مع من يدير شؤون المعمل . وليس هذا باكثر اكتراث منهم اذ لا يتردد في القول : انه عامل يتقاضى اجرته فلا يعنيه امر العمال ومطاليبهم . فيتضعضع هؤلاء غير

عارفين الى من يرفعون شكواهم فتتخزن في قلبهم الحزازات والضغائن ريثما تجد من يستغلها فتنفجر حينئذٍ عن تحاش وتتحول الى الخراب والتدمير والدم .

وثانيها ان صاحب المعمل يدير شؤونه بيده ، وليس ثم مساهمون او شركات غفل . الا ان الحالة قد لا تتغير . لماذا ؟ لانه يستحيل على صاحب العمل ان يتصل بعماله ، وقد كثر عددهم جداً ، فيتحدث اليهم ، وهم مئات والوف . فتكون الخطوة الاولى ابتعاد كل من الفريقين عن الآخر . فيولد هذا قلة المعرفة . هو يجهل همومهم ومشاكلهم ومطاليبهم ، وهم يجهلون استعداداته وعواطفه . هل من اعتبار لهم في عينيه ام هل يريد ان يستغلهم وحسب ؟ هم يتحملون عمل النهار والليل فيعودون الى بيوتهم مضنوكي القوى منهوكيها يتخبطون بتصاعب شتى . اما هو فهل يتعب او يشقى ؟ ام هل ينعم بما يدرّ عليه عملهم من خيرات : نحن نأكل لقمتنا مغموسة بالدم وهو يأكلها مغموسة بالعسل . هو يسعد من شقائنا ، ونحن نشقى لسعادته . فيولد هذا الشك فيهم سوء التفاهم والحقد والبغض ، ويصبح العمل في اعينهم عبئاً باهظاً يثقل عليهم حمله . فليس ثمّ في اعينهم خدمة يؤدّونها لمن يستخدمهم يقابلها خدمة يؤديها لهم ازاءها فينخسون في ضمائرهم : اعطف ومحبة ام استعباد واستثمار ؟ اعدل واخاء ام جور واحتقار ؟

ساعة ابتعد العامل عن صاحب العمل ، فجهل احدهما الآخر ، حينئذٍ اصبح بالامكان التفرقة بين قلبيهما وبثّ روح الحقد والثورة في قلب العامل وعدم المبالاة والاحتقار في قلب صاحب العمل . حينئذٍ فقد العمل قيمته الانسانية فاحتقره العامل وثقلت عليه وطأته ، حينئذٍ اصبح العامل جزءاً من الآلة التي يديرها وصار عمله سلعة تباع وتشرى .

بعض الظواهر التي وطدت هذه الفكرة في عقل العامل

وقد يعدّ نفسه سعيداً ان لا تنحط قيمته عن قيمة الآلة . لندخل احد المعامل — ماذا نرى : شباناً وشابات يسيّرون آلات جبارة . ما العامل ازاء تلك الآلة ؟ قزم امام جبار . وما هي الا حركة غافلة او في غير محلها حتى تردده

الآلة ازدراداً ، فيستصغر نفسه ويستضعفها: « مسكين ابن آدم مكتوم الاجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، توءلمه البقّة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة »[1] انما هو يعقل والآلة لا . لكن هل هو من ذلك على يقين ؟

لا نريد ان نغالي ونشوّه وجه الحقيقة . الّا ان ظروفاً كثيرة مبعثرة في حياة العامل تؤثر عليه وتدمي قلبه فتبدي على سبيل المثل هذه الملاحظة : لو فرضنا ان تعطلت لسبب من الاسباب احدى الآلات التي يستخدمها العامل ، فما يكون من صاحب العمل الّا ان يستدعي من يعالج شأنها ولا لوم عليه في فعلته . ولو فرضنا ان أُصيب احد العمال بعلة ما اثناء عمله فما يكون من صاحب العمل الّا ان يطرحه غير آسف عليه . ولا غرو فان الآلة عزيزة في عينيه ، لانها تكلّفه مبالغ طائلة . اما العامل فمبتذل وبخس الثمن . كيف لا وهو بانتظار من يستخدمه على مفرق كل طريق ، وفي زاوية كل شارع ، وفي الساحات العمومية وفي القهاوي وفي . . . افواجاً افواجاً يقفون بطالين لانه لم يشغلهم احد . فما عليه الّا ان يبدي اشارة فتتوافد عليه العمّال مسترحمين متوسلين مستسلمين الى من في يده انعاشهم مع عيالهم ، وقد سئمت نفسهم البطالة وذاب قلبهم اسى لمرأى عيالهم ضياعاً وعراة .

الاسباب التي منعت عن وضع حد لهذه الثورة

لقد احدث التقدم الصناعي فوضى في العالم . هذا امر واقعي . وكان لا بد للتقدم الذي شهدته الانسانية من ان يحدث ثورة . هذا ما يفهمه كل انسان . اما ما لا نفهمه فتبرره فهو ان يمر علينا ويلات لم نكن بانتظارها ، وقد صفقنا مهللين للاختراعات العجيبة مكبرين لها . لماذا ترى وصلت بنا الحالة الى ما وصفناه ؟

لان الثورة لم تجد رادعاً يوقفها عند حدّ فيمنعها من ان تنقلب الى فوضى عالمية . لان نظرات فلسفية فاسدة وآراء اقتصادية عقيمة شوّشت العقول وبلبلت الافكار ، فاعمت عيون ارباب العمل ومسكت بيد ارباب السلطات ، فجعلتهم يستسلمون للشر الذي يشهدونه وينقادون له صاغرين :

---

١) علي ابن ابي طالب ، الروائع ١ : ٤

« فالاضطراب ليس في الطبيعة الخارجية ، لان قوى الطبيعة خاضع اكثرها لتسيير الانسان ولا الانظمة الاجتماعية لانها هي ايضاً من وضع الانسان يكيفها ويبدلها كيفما شاء .

« مركز الفوضى الحقيقي هو نفس كل واحد منا . في تفكك المعتقدات الاساسية التي تقوم عليها الحياة . في انهيار المبادئ التي نتشى عليها في معاملة بعضنا لبعض ، في تضوب الينابيع الروحية في نفوسنا وجعل المادة مسيطرة على كل قوى الحياة في استسلامنا اخيراً الى تزق شهوات ومطامع ألهناها وحللناها في حياتنا محلّ الشرائع الازلية التي رسمها الخالق للانسان.

« لقد حلّ في عالمنا الحاضر ما يحلّ غالباً في جسم الانسان عند انتقاله من طور الصبا الى طور الشباب. فانه بسبب نموّه السريع تنحط في شرايينه قوة الدم الحيوية فيشحب لونه وتخور قواه وتصبح حياته مهددة بالخطر المميت. هذا الداء معروف عند الجميع « بفقر الدم » .

« فعالمنا اليوم قد سار شوطاً بعيداً في التقدّم المادي . بسبب الاستنباطات العجيبة التي لم يعرفها الانسانّ في الاعصر الغابرة . ولم يك هذا النمو ليرافقه نموّ في الحياة الروحية فطغت المادة على الروح وصرنا نحس بالافتقار الى تجديد روحي يعيد الانتعاش في الهيكل الاجتماعي. هذا هو السبب الرئيسي للفوضى العالمية. »[1]

رادعاه للفوضى : داخلي وخارجي

الرادع الداخلي

ان هذا « الانتعاش في الهيكل الاجتماعي »[2] يتجسم لنا في امرين كان يوسعها ان يكونا رادعين للثورة. اما الرادع الداخلي فهو ضمير نحي يدلي لكل انسان بواجباته فيتممها. فهو صوت العدل والمحبة والاخاء. هو نظرة عدل الى العامل واقرار بشخصيته وقيمته واعتراف بها، مهما دلت الظواهر على قوة الآلة وضعف العامل لان هذا يفوق تلك بدرجات لانه حي هو ، وهي لا. لان له نفساً تشرئبه وترفع

---

١ و٢) الفوضى العالمية ، ص ١٤-١٥

مقامه وتعززه في اعيننا فهو ارفع من ان يباع ويشرى ، اما هي فليست الا سلعة مهما ارتفع ثمنها . لانه اخيراً يريد ان يكون شغله خدمة يقدمها لصاحب العمل ازاء خدمة تُقدم له، لا ان يكون سلعة يتجر بها لان شغله جزء منه فهو يريد ان يخدم فيفيد لا ان يستخدم فيُستغلّ .

الا ان تعطّشاً للربح لا يُروى وجشعاً لا يشبع استوليا على بعض الرأسماليين « فاصبح همهم منصرفاً الى توفير اموالهم باية طريقة كانت يسعون وراء غاياتهم فوق كل شيء وقبل كل شيء وما من امر الا يستحلونه لمصلحتهم الخاصة حتى افظع الجرائم في حق الناس . . .

« وكان من البديهي ان سيرة مديري الشؤون الاقتصادية المنحرفة عن الطريق المستقيم تدفع بعموم العملة في مختلف الاحوال الى التورط مثلهم في هوة الهلاك ولا سيما لان السواد الاعظم من مديري الاشغال الصناعية قد استخدموا عملتهم كالآلات الصماء غير مكترثين لخير نفوسهم بل غير مفتكرين بمصالح مستخدميهم السامية . . . وهكذا الشغل الجسدي الذي رتبته العناية الالهية لمنفعة جسد الانسان وروحه يتحوّل في احوال عديدة الى آلة فساد : اي ان المادة الجامدة تخرج من العمل اشرف واسمى ؛ اما الاشخاص البشرية فينفسدون فيه ويصبحون ادنى قيمة . »[1]

ولا غرو في ذلك لان النظريات الفلسفية المادّية حطّت من شأن الانسان وانكرت عليه روحه وجعلته في مصافّ الحيوان ، اذ المادة وحدة كائنة ولا كيان لغيرها . وما الانسان الا نتيجة المادة في مختلف تطوراتها . فهو يخلق وينشو ثم لا يلبث ان يموت فيتلاشى « مسكين ابن آدم . . . » اما هو فيعقل ، والآلة لا . لكن هل هو على يقين من ذلك ؟

الرادع الخارجي

كان ثم رادع ثانٍ لهذه الثورة يقف بها عند حدّ ، اعني به تداخل السلطات بوضع شرع يسنونه . لكن التقدم الصناعي حرم من هذا الشرع وقد قال احدهم :

١) رسالة البابا بيوس الحادي عشر : الترجمة العربية ، ص ٤٧-٤٨

« ان الصناعة الحديثة في اول ازدهارها كانت بحاجة الى تعليم ثقة يرشدها الا انها لم تلقَ الا تعليم الحرية الاقتصادية المرتكزة على شريعة العرض والطلب ، شريعة وثنية تدفع الضعيف بين يدي القوي. »[1]

يزعم مناصرو هذه النظرية ان الطريقة المثلى التي تنعش اقتصاديات البلاد وتفيض الخيرات على الافراد انما تقوم باعطاء الحرية المطلقة للافراد في حقل الصناعة والانتاج والتجارة « لان الفرد اخبر بخيره من كل شخص آخر . واذا ترك للافراد حق الاختيار فانهم سيسعون لتحقيق اكبر خير يعود لانفسهم . . . فلنترك الاسواق حيث يلتقي الشاري والبائع وشأنها فتتبدل الاسعار صعودًا او هبوطًا حسب قوى العرض والطلب الناتجة عن اختيار الناس وتفضيلهم بعض الاشياء على البعض الآخر واجور العمال كغيرها من السلع تدخل في نطاق الاسعار ولذا ينبغي ان تخضع مع سواها لقانون العرض والطلب. »[2]

فيكون والحالة هذه موقف العمال مزدوجًا ازاء صاحب العمل :

لو فرضنا ان صاحب العمل يريد ان يستخدم مئة عامل فيلبي دعوته ثمانون ، ويستحيل عليه ان يجد غيرهم . فيقول الاباحيون : ان لهؤلاء الحق بطلب الاجور التي يريدونها — وان لصاحب العمل الحرية في القبول ام الرفض — ولكن ماذا تكون النتيجة ؟ ان قبل شروطهم الجائرة لا يلبث ان يزج تحت عبء ثقيل يقوده الى الافلاس . وان لم يقبل بالشروط ظلّ الثمانون عاملًا بغير شغل .

ولنفترض الآن ان صاحب العمل يحتاج الى مئة عامل فيلبي نداءه الف . ماذا يحدث ؟

يقول الاباحيون : دع الفريقين يتفقا على شروط العمل . فان لصاحب العمل الحق في املاء الشروط التي يريدها وان جائرة ، وللعمال الحرية في القبول ام الرفض . فنجيب : وهمية هي تلك الحرية لان العامل يفضل الشغل وان لقاء اجر زهيد على البطالة التي سئمتها نفسه . وهمية هي لان العامل اذا ما رفض الشروط

(١) *Cahiers d'Action Sociale* N° 72 Mgr. Germain

(٢) الطليعة — السنة الثانية ٣ : ٢٢٢

يعرف ان عمالاً كثيرين يعدون انفسهم سعداء اذا ما وجدوا شغلاً مهما كانت الشروط .

ان الاباحيين يقرون ان في بادئ بدء قد يحدث بعض الشرور والمظالم . لكن هذه لا تلبث ان تتلاشى ويحصل التوازن الاجتماعي من تلقاء ذاته بفضل شريعة العرض والطلب .. ولنحذرن السلطات ان تتدخل في الامور الاقتصادية فتضع شرائع تحدد فيها اجور العامل او ساعات العمل او الانتاج او المبادلات التجارية . لا . فان مثل هذا التدخل يفسد كل شيء ويقف حاجزاً في وجه حرية الافراد المطلقة الذين هم وحدهم عارفون بما يعود لخيرهم ويفتشون عنه بكل اعتناء . وبفضل المزاحمات الناتجة عن هذه الحرية المطلقة ينال كل انسان حسب جهوده . فكأني بهم يقولون للحكام : اطلقوا اليد في هذا الحقل واحذروا من ان تعرقلوا الحرية بطريقة من الطرق :

حرية المبادلات والمزاحمات التجارية، ولا تنتبهوا الى ما ينجم عنها من الخطر للصناعة الوطنية .

حرية اليد العاملة من رجال ونسوة واولاد كل يعمل متى يريد وكيف يشاء، وغضوا الطرف عما يهدد الحياة العائلية .

حرية التعاقد بين العامل وصاحب العمل، وتجاهلوا ما يلحق بالواحد او بالآخر من اجحاف .

واخيراً حرية الانتاج وان تراكمت الخيرات وفاضت وليس ثم من يشتريها او يستهلك .

واذا كان لا بد من خاتمة فنقول :

استنباطات معجزة شهدناها فوقفنا امامها حائرين مكبرين : سبحان من جعل الانسان يفهم ويعقل .

تطورات مدهشة في حقلي الصناعة والانتاج سهلت للانسان طرق المعيشة وفسحت امامه مجالاً واسعاً للتأنق في معيشته وتعدد حاجاته : « وليس تعدد الحاجات من آيات الوهن او علامات السقم في الفطرة البشرية . بل قد يكون

دليلاً على عظمتها وكرمها . فالطبقة السفلى من الحيوان اقل حاجات من الطبقة العليا والهمج اقل حاجات من البرابرة وهؤلاء اقل حاجات من الامم المتحضرة في اثناء المدنية .»[1]

تقدم سريع مشى حثيثاً بالبشرية المضنكة بالنظريات الفلسفية والاقتصادية فغمضها وافقدها رشدها واتجاهها البعيد ، ولم يمهلها وقتاً تعي فيه كيف تستعمل ما تدر عليها الآلات من العجائب والغرائب فتستفيد منها . فتمايلت عجباً وافتخاراً وتوهمت انها حظيت بالسعادة التي تفتش عنها وما هي الّا ليلة وضحاها حتى رأت نفسها تجر ذيلها خسيسة ذليلة وراء تلك الآلة ثمرة جهودها فاستعبدت لما خلقته لتستخدمه .

ونحن لا نحكم على الآلة فنشجبها انما ندعو الانسان مستوقفينه قليلاً قائلين له : هي الآلة لك فاستخدمها ولا تستعبد لها . انما انت اكبر وارفع من ان تخرّ ساجداً امام صنع يديك .

---

١) الموجز ١ : ٢٧-٢٨